– ٣٠ –

أيقونة موت المسيح وقيامته في سفر يونان النبي

❋✚❋

حينما طلب اليهود من الرب يسوع آيةً وبرهانًا على نُبوَّته، أُسوةً بما صنعه موسى النبي الذي أعطاهم المَنَّ من السماء. لم يُعطِهم السيِّد آيةً جديدة؛ بل حوَّل أنظارهم إلى آية يونان النبي. فذكَّرهم الربُّ بآية موت يونان ودخوله بطن الحوت، ثم خروجه حيًّا وكارزًا بعد ثلاثة أيام، كآيةٍ وإشارةٍ ونبوَّةٍ عن عمله الفدائي بالموت والدفن في القبر، ثم القيامة في اليوم الثالث لخلاصهم – الذي كان مُزمعًا أن يُتمِّمه لهم وللعالم – لعلَّهم يُدركون عظمة المتكلِّم.

فيونان كان مثالًا حيًّا لسرِّ المسيح المُقدَّم لليهود وللعالم كله، ولكنه لم يكنْ مثالًا كاملًا للمسيح في كل تصرفاته ومواصفاته؛ مثله مثل موسى النبي الذي كان ثقيل اللسان، وهارون الذي أخطأ بصناعة العجل الذهبي، ويونان نفسه الذي حاول الهرب من تكليف الرب له بالمُنادة لأهل نينوى، ولكنه كَرَزَ وتمَّم لنا آيته عن السيد المسيح بمثال موته، وذلك بالدخول في بطن الحوت ونزوله إلى الأعماق، ثم بقيامته حيًّا بالخروج من بطن الحوت حيًّا بعد ثلاثة أيام كمثال لسيِّده المخَلِّص. فقد أظهر لنا بحياته – رغم ضعفه – صورًا سرِّية رائعة عن حياة مخلِّصه، إذ وَضَعَ نفسه للموت من أجل نجاة السفينة ورُكَّابها حين قال للنواتيَّة: «خُذُونِي وَاطْرَحُونِي فِي الْبَحْرِ ...» (يون ١: ١٢)، كما قيل عن الرب يسوع إنه «... يَبْذِلَ نَفْسَهُ فِدْيَةً عَنْ كَثِيرِينَ» (مت ٢٠: ٢٨). وإن كان يونان قد أظهر حزنًا على ظهور رحمة الله على أهل نينوي، فذلك يرجع ليس إلى حزنه على توبتهم ورجوعهم، ولا إلى حزنه على رحمة الله عليهم، بل إلى خوفه من أن يظنَّ أهل نينوى أنه كان كاذبًا ومبتذلًا وسبَّب انزعاجًا لهم، وأنَّ ما قاله لهم هو من عنديَّاته، وليس حسب المكتوب من **"فم الرب"** (إر ٢٣: ١٦). لذلك فقد بادر إلى الهروب والتخلِّي عن هذه الإرسالية الصعبة، لأنه كان متأكِّدًا من مراحم الرب، حسب ما قال هو بالروح عن الله

مُرسلِه أنه: «إِلهٌ رَؤُوفٌ وَرَحِيمٌ بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ وَنَادِمٌ عَلَى الشَّرِّ» (يون ٤: ٢).

من هو يونان بن أمِتَّاي؟

هو نبيٌّ من بلدة (جَتّ حافر)، وقد قدَّم نبوَّته هذه قبل الأنبياء هوشع وعاموس وميخا وبقية الأنبياء الصغار. وتنبأ يونان أيضًا عن شعب إسرائيل بحسب ما كُتِبَ عنه: «هُوَ (يربعام) رَدَّ تُخْمَ إِسْرَائِيلَ مِنْ مَدْخَلِ حَمَاةَ ... حَسَبَ كَلاَمِ الرَّبِّ إِلهِ إِسْرَائِيلَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ عَنْ يَدِ عَبْدِهِ يُونَانَ بْنِ أَمِتَّايَ النَّبِيِّ الَّذِي مِنْ جَتَّ حَافِرَ» (٢مل ١٤: ٢٥- ٢٧).

رحلة الآيات والرموز وروعة التحقيق:

أولًا: الهروب وأحداث السفينة:

أراد يونان النبي أن يهرب من دعوة الرب له للكرازة لأهل نينوى، فركب السفينة الذاهبة إلى ترشيش ونام فيها نومًا عميقًا كشبه ميت، هربًا وخجلًا من مشاعر الحزن وتأنيب الضمير لمُخالفته دعوة الله له، ولم ينتبه إلَّا على صيحات النواتيَّة حينما أيقَظوه ليبحث معهم عن سبب أو وسيلة للنجاة من هياج البحر عليهم. بينما نرى أن الرب يسوع حينما كان نائمًا في السفينة، فقد كان يترقَّب رؤية إيمان تلاميذه به، منتظرًا طلبهم منه أن يُنجِّيهم ويُظهِر قوَّته ومجده كإلهٍ للطبيعة، فيَهبهُم سلامه ويقوِّي إيمانهم، حتى إنهم سجدوا له واعترفوا بلاهوته.

كان هياج البحر وهدير أمواجه المُرعبة التي زأرت طلبًا ليونان حتى تبتلعه وتقضي بموته، هي بعينها أصوات وصراخ رؤساء الكهنة وصيحاتهم للمُطالبة بصلب يسوع وموته: «اصْلِبْهُ! اصْلِبْهُ!»، وأيضًا قولهم: «... أَنَّهُ خَيْرٌ لَنَا أَنْ يَمُوتَ إِنْسَانٌ وَاحِدٌ عَنِ الشَّعْبِ وَلَا تَهْلِكَ الأُمَّةُ كُلُّهَا» (يو ١١: ٥٠). فالبحر لم يرضَ بغير يونان بديلًا **لفداء السفينة وركَّابها** (الكنيسة). وأما يسوع فمن أجل طاعته وحبِّه قدَّم نفسه للموت **ليُنجِّي العالم كله** وليس السفينة فقط؛ وهكذا صار الموت ضرورة لوقف شرِّ الإنسان وغضب الطبيعة، وثمنًا لإطفاء نيران الشر والخطيئة التي زرعها إبليس في الإنسان وفي العالم، ومَعبَرًا حقيقيًّا نحو القيامة والحياة الجديدة.

حاول يونان أن يهرب من الكرازة لأهل نينوى، فصيَّره الله كارزًا للنواتيَّة الأُمميِّين، وحينما سألوه عن جنسه وشعبه، فقد كلَّمهم عن إلهه العظيم والمخوف وعن هروبه منه، فخاف

النواتيَّة الله وذبحوا ذبائح، وحاولوا إنقاذ يونان بكل الطرق، حتى إنهم ألقوا بحمولة السفينة في الماء، ولكن لم يهدأ البحر. وهذا أيضًا ما فعله بيلاطس البنطي مع يسوع، حينما سأله عن نفسه: «أَفَأَنْتَ إِذًا مَلِكٌ؟» (يو ١٨: ٣٧)، فقد أراد الرب أن يجعل بيلاطس نفسه يؤكِّد هذه الحقيقة، فارتَعدَ بيلاطس وخاف من يسوع جدًّا، وشهد أنه لا يجد فيه عِلَّةً للموت، وأراد أن يُطلِقه، وحينما فشل في ذلك بسبب هياج اليهود ومحبته لمجد العالم، حينئذٍ غسل يديه وقال لهم: «إِنِّي بَرِيءٌ مِنْ دَمِ هذَا الْبَارِّ!» (مت ٢٧: ٢٤)، ثم أسلمَه ليُصلَب. وفي كلتا الحالتين (مع يونان ومع المسيح) لم يقدر – لا النواتيَّة ولا بيلاطس – أن يمنعا وقوع الموت، لأن التدبير كان قائمًا أن يجوز يونان تجربة الموت والحياة كمثال الرب يسوع. وإن كان موت يونان وحياته قد أنقذا ركاب السفينة وأهل نينوى، فإن موت المسيح وقيامته قد حقَّقا لنا غاية هذا الرمز بفداء العالم كله ونَيْله الحياة الأبدية بقيامة الرب المجيدة بقوة لاهوته.

ثانيًا: الموت في الماء والصعود حيًّا (مثال موت المسيح وقيامته):

أعدَّ الرب حوتًا عظيمًا ليبتلع يونان، فصار الحوت ليونان رمزًا للقبر الجديد الذي وُضِع فيه مخلِّصنا. وفي كلتا الحالتين لم يقدرا – لا الحوت ولا القبر – أن يحويا الداخلين فيهما، بل خرجا كلاهما من الاثنين أحياء. ويرى القديس يعقوب السروجي في الحوت الذي ابتلع يونان معانٍ وإشارات رائعة: إذ يراه القديس مثالًا لبيتٍ فريدٍ لم تَقْرُبه الأمواج، ويرى في فم الحوت أنَّه كرَحِم العذراء البتول التي ولدت بغير زرعٍ بشريٍّ. كما يرى القديس في حَبْسِ يونان في الأعماق في بطن الحوت، مثالًا للسجن المُبهج دون أذى، وطريقًا كرَّسه المسيح بذاته. كما يرى القديس كذلك في بطن الحوت مثالًا للهيكل المقدَّس الكائن في أعماق البحر، الذي تُقدَّم فيه ذبائح الحمد والشكر، وسماءً ثانيةً ومخدعًا للعبادة.

كذلك يمكننا أيضًا إدراك أن خروج يونان من بطن الحوت ومن أعماق المياه حيًّا بعدما تضرَّع إلى إلهه، كان مثالًا ناطقًا للقيامة المجيدة التي أتمَّها الرب يسوع وأوهبنا إيَّاها، وصورة مُدهشة لعملية الولادة الجديدة من الماء والروح، التي نلناها من قِبَل المعمودية المقدَّسة بدفننا في مياه جُرْن المعمودية، كمثال دفننا وقبرنا مع المسيح، لكي نقوم معه في جدَّة الحياة، كما خرج يونان حيًّا، وكما قام المسيح من بين الأموات في اليوم الثالث، مُحطِّمًا أغلال الموت والقبر.

وكما كان يونان في حُكْم الميت جسديًّا بعدما نزل إلى المياه وابتلعه الحوت - الذي صار له قبرًا - بينما هو حيٌّ بداخله يرفع صلاة الحمد والشكر لله، ثم أخرجه الحوت إلى الحياة مرة أخرى؛ هكذا أيضًا الرب يسوع بعدما صُلب ومات وقُبر بالجسد كميت، كان حيًّا بلاهوته الذي به نزل إلى الجحيم وسبى سبيًّا، وكرز وحرَّر كل الذين سباهم إبليس وماتوا على الرجاء. ثم قام بالجسد مرة أخرى في اليوم الثالث – مثل يونان – بقوة لاهوته، ووهبنا الحياة بقيامته المجيدة.

ثالثًا: الكرازة لنينوى وتوبتها، وتوبتنا نحن:

رغمَ أنَّ رسالة يونان لأهل نينوى لم تحمِل سوى تهديد بانقلاب المدينة، دون أي وعود بالنجاة إن تابوا ورجعوا، وذلك على خلاف دعوة الرب يسوع حينما قال للجموع: «بَلْ إِنْ لَمْ تَتُوبُوا فَجَمِيعُكُمْ كَذلِكَ تَهْلِكُونَ» (لو ١٣: ٣)، ومع هذا فقد قَبِل أهل نينوى الدعوة بخشية ورِعدة وخوف وإيمان بالله، رغم كونها آتية من رجلٍ غريب عنهم لا يعرفونه، فقبلوا بدون تأخير تلبية نداء التوبة، وهَبُّوا لإصلاح أنفسهم، وتبعوا التعاليم الإلهية بالندم والتوبة عن شرورهم، لعل الله يرجع عن حُموِّ غضبه عليهم. فقاموا بكل حذقٍ وبصيرة روحية ليُتمِّموا توبتهم بكل اجتهاد، مترجِّين العفو والخلاص. فاستطاعوا أن يُغيِّروا قضاء الله من جهتهم، ونالوا الغفران والنجاة. وما أحوَجَنا اليوم نحن أيضًا، أن نحذو حَذْوَهم لننال بالتوبة صفحًا وغفرانًا وخلاصًا عظيمًا.

ويقول القديس كيرلس الكبير عن توبتهم:

[«بَعْدَ أَرْبَعِينَ يَوْمًا تَنْقَلِبُ نِينَوَى» بناءً على قول الرب له، فهو لم يكن كاذبًا، لأن هذا كان بالفعل قول الرب له؛ ولكن هناك أقوال أخرى قالها الرب أيضًا له لم يُبلِّغها إلى أهل نينوى. وكثير من الأنبياء يُعلنون طريقة رسالتهم، ولا ينقلون لنا أقوال الرب لهم، ولا أقوالهم هم للرب. فالجزء الأول هو ما أعلنه يونان لأهل نينوى، ولكن انظر إلى حديثه إلى الله حينما يقول: «آهِ يَا رَبُّ ... عَلِمْتُ أَنَّكَ إِلهٌ رَؤُوفٌ وَرَحِيمٌ بَطِيءُ الْغَضَبِ وَكَثِيرُ الرَّحْمَةِ وَنَادِمٌ عَلَى الشَّرِّ» (يون ٤: ٢). وهذا الكلام قاله له الله أيضًا وأوضَحه للنبي، وكان هو يعرفه عن الله، ولكنه لم يُعلنه بالكامل لأهل نينوى][1].

---

(١) تفسير سفر يونان النبي للقديس كيرلس الكبير – مؤسسة القديس أنطونيوس. ترجمة د. جورج عوض (طبعة أولى)، ص ٣٦.

كما يقول القديس كيرلس أيضًا تعليقًا على عبارة: «نَادِمٌ عَلَى الشَّرِّ»:

[هي بمعنى أنه سوف يغيِّر رأيه، لأنه لو رأى أنهم قد انتقلوا من الدناءة إلى الصلاح، فسوف ينتقل هو بحكمة إلى الهدوء ومحبته للبشر، لأنه بطبعه صالحٌ ومحبٌّ للبشر. فالرب يقول لإسرائيل على لسان حزقيال النبي: «قُلْ لَهُمْ: حَيٌّ أَنَا، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، إِنِّي لَا أُسَرُّ بِمَوْتِ الشِّرِّيرِ، **بَلْ بِأَنْ يَرْجِعَ الشِّرِّيرُ عَنْ طَرِيقِهِ وَيَحْيَا. اِرْجِعُوا، ارْجِعُوا عَنْ طُرُقِكُمْ الرَّدِيئَةِ! فَلِمَاذَا تَمُوتُونَ يَا بَيْتَ إِسْرَائِيلَ؟**» (حز ٣٣: ١١). وهذا ما صنعه أهل نينوى الذين رجعوا بالتوبة مترجِّين أن يذهب عنهم الغضب. مُشرِكين حتى البهائم في حزنهم. وهو أمرٌ يفوق العادة – ليس لأن الله طلب أن تتألم الحيوانات – بل ليُبرهِن لنا أنها كانت توبة تفوق الأمر العادي. فالكتاب يسجِّل لنا أن توبة نينوى كانت فوق الاعتياد حتى إن البهائم أيضًا تعرَّضت لألم التوبة][٢].

مَلِك نينوى الحكيم قام عن كرسيِّه (عرشه)، لأن العرش لله وحده. وخلع رداءه رمزًا لتعريته لذاته، كما فعل الجُند بالرب يسوع، وتغطَّى بمسح الاتضاع والتذلُّل، وجلس على الرماد؛ إشارة لحرقه كل تذكارات الشر والخطية التي داسها بقدميه. لقد أدرك أن حياته وحياة شعبه ليست في يد النبي الذي يُنذرهم بالموت، بل هي في يد الله الذي أرسله. ففهم الرسالة وَهَبَّ مع شعبه لتقديم التوبة واستمطار مراحم الرب الغنيَّة، فنال النجاة والخلاص له ولشعبه. فنينوى نَجتْ من أجل توبتها وليس بسبب ذبائحها، فقد انسكبت باتضاع في المسوح والرماد، وتركت عنها معاصيها، ورجعت عن أعمالها الرديئة، فاقتنصت لنفسها الغفران والسلامة. وها صوت المسيح يُنادي: «بَلْ إِنْ لَمْ تَتُوبُوا فَجَمِيعُكُمْ كَذلِكَ تَهْلِكُونَ» (لو ١٣: ٣). ولكن مراحم الرب تُحيي رجاءنا حينما نقرأ أن الله لا يشاء موت الخاطئ **مثل أن يرجع ويحيا**، وفي ذلك المعنى يقول القديس كيرلس الاسكندرى:

[فالرب المُسرِع تجاه الرحمة حينما رأى توبة أهل نينوى، رجع عن غضبه حسب قوله: «اِطْرَحُوا عَنْكُمْ كُلَّ مَعَاصِيكُمُ الَّتِي عَصَيْتُمْ بِهَا ... فَلِمَاذَا تَمُوتُونَ يَا بَيْتَ إِسْرَائِيلَ؟ لأَنِّي لَا أُسَرُّ بِمَوْتِ مَنْ يَمُوتُ، يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ، فَارْجِعُوا وَاحْيَوْا» (حز ١٨: ٣١، ٣٢)، «هَلْ مَسَرَّةً أُسَرُّ بِمَوْتِ الشِّرِّيرِ؟ يَقُولُ السَّيِّدُ الرَّبُّ. أَلَا بِرُجُوعِهِ عَنْ

(٢) المرجع السابق ص: ٣٩، ٤٠.

طُرُقِهِ **فَيَحْيَا**؟» (حز ١٨: ٢٣). فقول الرب إنه "**ندم على الشرِّ**" لا يقصد فعل الشر، بل بالحري الغضب الذي بسبب الشرور لأن إلهنا مُحِبٌّ للفضيلة وليس فاعلًا للشرور][٣].

ارتحل يونان من المدينة، وبات مترقِّبًا ما سوف يحدث لها؛ أي دمارها. ولكنه اغتمَّ وحزن لأنَّ شيئًا لم يحدث، إذ قد عفا الله عن المدينة؛ فحَزِنَ لأجل انكشاف موقفه وانكفائه على ذاته، وشعوره بالحرج لظهوره بمظهر الكاذب، وهو لم يكن كذلك، كما سبق الإيضاح. لكن العجيب في الأمر أن يُعاتب يونان (الخادم) إلهه على كثرة رحمته على خليقته، بينما نجد خادمًا آخر – مثل بولس الرسول – يُظهر لنا فرحته ومدي استعداده الكامل أن يكون هو نفسه محرومًا من أجل أنسبائه في الجسد (رو ٩: ٣). فلماذا يحزن يونان إن رجعت نينوى عن خطاياها ونجت؟ فالله يريد أن الجميع يخلصون وإلى معرفة الحقِّ يُقبِلون. والله يُضيِّق على الإنسان بتجارب متنوعة: عواصف، ضيقات، أمراض، بأُناسٍ أشرار، وأحزانٍ مختلفة، حتى يُلزمنا – بدلًا من الهروب إلى ترشيش – أن نهرب إليه بالتوبة والندم والخوف والطاعة والتسليم لمشيئته، لكي ننجو نحن وكل مَن معنا في السفينة (البيت والكنيسة والخدمة والعالم).

أخيرًا، نَلمَحُ في السِّفْر صورة جميلة لمراحم الرب الشاملة لكل خليقته، بقوله: "**وبهائم كثيرة**". فهنا يظهر لنا مدى عظمة صلاح الله كإله لكل الخليقة، فهو لا ينسى حتى البهائم التي تألمت وشاركت البشر في الصوم والتذلُّل، فحسبها أيضًا جديرة برحمته العالية التي وهبها لأهل نينوى. والكتاب المقدس يُعلِّمنا أنَّ: «الصِّدِّيقُ يُرَاعِي نَفْسَ بَهِيمَتِهِ» (أم ١٢: ١٠)، فليس مُستغرَبًا على الله خالق الكلِّ **أن يُراعي نفس هذه البهائم،** بل وكلَّ خليقته برحمته العالية، كما يقول المرنِّم: «**النَّاسَ وَالْبَهَائِمَ تُخَلِّصُ يَا رَبُّ،** مَا أَكْرَمَ رَحْمَتَكَ يَا اَللهُ! فَبَنُو الْبَشَرِ فِي ظِلِّ جَنَاحَيْكَ يَحْتَمُونَ» (مز ٣٦: ٦، ٧).

(٣) تفسير سفر يونان النبي للقديس كيرلس الاسكندرى- مؤسسة القديس انطونيوس. ترجمة د. جورج عوض، طبعة أولى: ص ٣٩.